الحواضر والمدن في بلاد المغرب القديم

المحاضرة 05: المرافق الأساسية للمدن الرومانية في المغرب القديم

يعتبر شمال افريقيا من ابرز الاماكن التي عرف التواجد الروماني اليها طريقا عبر البحر الابيض المتوسط، و صقيلية، حيث استقر بها مدة من الزمن، و شيد فيها العديد من المنشآت المعمارية داخل المدن التي بنتها، مشكلة بذلك نسيجا عمرانيا راقيا ظلت اثاره الى يومنا هذا. وتعد هذه الاخيرة او بالأحرى انشاء المدن و الحواضر العمرانية مع تعميرها معماريا (منجزات معمارية من حمامات ، مسارح، معابد و بازيليكات.....) من الطرق التي اتخذها المستعمر لبسط نفوذه.

بدأت هذه المدن كمعسكرات، فالإمبراطورية الرومانية شيدت العديد من المدن في الشمال الافريقي و لتتحول فيما بعد الى مدن و عواصم كبيرة كتمقاد، عنابة، سكيكدة، تبسة ،مداورش، جميلة، تيبازة...الخ، لكل هذه المدن و نسيجها العمراني مع العديد من المنشآت المعمارية التي تتميز بها المدينة الرومانية القديمة مقارنة مع المدينة الاسلامية مثلا . وما نسميها بالمرافق المعمارية و العمرانية للمدينة الرومانية القديمة.

و لازالت بصماته أي المرافق جلية وواضحة الى يومنا هذا تبرز لنا مدى التأثر و التأثير بين كلا من الرومان و سكان المنطقة المحليين مع الرومانيين خاصة في الحياة الاجتماعية ، العمارة و الفنون، فقد كان هناك اتصال دائم و وثيق يعبر عن مدى اقبال و تواصل السكان المحليين مع الرومان، بحيث نلمس ذلك في المعالم الاثرية الواقعة بالمدن الرومانية الجزائرية القديمة التي تستوفي فيها شروط مخطط المدينة الرومانية، من شوارع، البازيليكا، الفوروم، المعبد، و المسرح الذي كان يعتبر بدوره احد المعالم الترفيه و التسلية، و الامثلة عديدة نتطرق اليها في عنصر المسرح .

و قبل التطرق الى بعض هذه المرافق الأساسية للمدينة الرومانية، سنحاول و لو باختصار شديد ذكر بعض المميزات التي تتميز بها المدينة القديمة(الرومانة)عمرانيا و معماريا و نأخذ على سبيل المثال مدينة تيمقاد التي تعد من ابرز المدن ضخامة و تطورا في مجال العمران و العمارة لضمها لجملة من المرافق ما زالت موجودة الى يومنا هذا :

1- تحصين المدينة أي اقامة اسوار و تدعيمها بسلسلة من القلاع و الأبراج و الحصون ، تحصينها من الخطر الخارجي او من الثورات الداخلية. و هذه الظاهرة نجدها تتميز بها غلب المدن الجزائرية في الفترة الرومانية كما هو الحال لمدينة تيمقاد الاثرية .

2- وجود شارعان رئيسيان يتقاطعان في زاوية قائمة حيث يتقاطع الشارع الطولي الرئيسي الذي يتجه من الشمال الى الجنوب يسمى كاردو ماكسيميوس مع الشارع العرضي هذا الاخير يتجه من الشرق الى الغرب و يسمى دوكمانيوس ماكسيميوس، و من خلال الشكل العام للمدينة، و عن طريق تقاطعات الشوارع المتوازية ، فان المدينة تقارب في تصميمها شكل لوحة شطرنج كل مربع كان مقسم الى 36 قطعة سكنية مربعة مقاساتها 20م2، و من كل جانب مشكلة طرق ثانوية ضيقة.

3- تبليط ارضية الشارعان ببلاطات من الحجر الجيري، بينما بقية الشوارع جاءت مرصوفة بالحجر الرملي، و توجد ستة شوارع الى الشرق من شارع الكاردو و تتجه هذه الشوارع الى جهة الشمال حيث موقع الفوروم الروماني.

مرافق المدينة:

اولا: مرافق ذات طابع اجتماعي واقتصادي:

1- مرافق ذات طابع اجتماعي:

❖ **الساحة العمومية (الفوروم)**: تكاد لا تخلو أي مدينة رومانية من هذا المرفق الهام، وهي عبارة عن ملتقى الطريقين الشمالي الجنوبي والشرقي الغربي(دوكومينوس- كاردو)، و الساحة العمومية في تيمقاد مثلا مستطيلة طولها 50 متر وعرضها 43 م، ومبلطة بالأحجار الزرقاء. و تعد الساحة العمومية الشريان الحيوي لمدينة تيمقاد في شتى المجالات سواء السياسية أو الاقتصادية أو غيرها من المجالات الأخرى، فهي اذن ملتقى عام للشعب ومتنفس لهم للتعبير عن أراءهم وتبادل الأفكار وغيرها من الأعمال الأخرى.

يتكون هذا المرفق الاساسي للمدينة الرومانية القديمة عامة و في الجزائر القديمة خاصة من عدة مرافق ذات طوابع مختلفة كالمعبد والسوق وغيرها من المرافق الأخرى، و تعتر الساحة العمومية مركز ديني وسياسي وتجاري. كما تعد قلب المدينة النابض بحركتها النشيطة في مختلف أوجه الحياة وتقام في الساحة العمومية ، وكان أيضا الفوروم ملتقى الناس في وقت فراغهم وموعد آخرين لقضاء أشغالهم، كما تتم في الساحة العمومية الانتخابات ويوجهون من فوق المنبر الخطب العامة للشعب، وخطب الرثاء والكلمات التأبينية ترحما على الأشخاص ذوي الرتب العالية، وتؤدى فيها اليمين من طرف رجال سلك العدالة واستلام النبلاء والأعيان لمهامهم، إضافة إلى ذلك كانت الساحة العمومية عبارة عن مكان لإعلانات البرامج و الاحتفالات القادمة وإعلانات البيع....

- الحمامات:

في بداية القرن الرابع الميلادي بدأت المباني العامة تأخذ شكلا و مقاييس، كالحمامات مثلا، فأصبحت هذه الاخيرة مكان او ملتقى للشعب يتبادلون الآراء س السياسية و الاقتصادية و الثقافية، و الحمامات تدل على الحضارة التي آل إليها الرومان ومن أكثر المباني الدالة على عاداتهم وحبهم للحياة الصحية والرياضية، كما ان هذا النوع من المرافق الترفيهية كانت تقوم مقام المقاهي والنوادي في وقتنا الحالي، فلقد كان الفرد الروماني يقضي جل أوقاته في الحمامات.

و اللافت للانتباه ؛ تمييز المدينة بهذا الطابع الصحي إن أمكن القول ويتوفر في مدينة تيمقاد أكثر من**14** حمام عمومي مما يؤكد اهمية هذه المدينة، ولقد كانت الحمامات ملتقى للشعب يتبادلون الآراء السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها إذ أن الاستحمام كان هو آخر عمل يقوم به الفرد الروماني في الحمام، ولقد كانت الحمامات تدل على الحضارة التي آل إليها الرومان ومن أكثر المباني الدالة على عاداتهم و حبهم للحياة الصحية والرياضية بعد الانتهاء من أشغاله التي تقضى في الساحة العمومية. و عموما فان الحمامات تتكون من أربعة أجزاء رئيسية وهي: 1- **مكان خلع الملابس.** 2- **مكان الحمام البارد.** 3- **مكان الحمام المعتدل.** 4- **مكان الحمام الساخن.**

نشير الى ان معظم الحمامات تتوفر على ثلاث غرف وهي الغرفة الباردة وتليها المعتدلة الحرارة، ثم الغرفة الحارة جدا وهي الكالداريوم (**CALDARIUM**) ، و من الحمامات بمدينة تيمقاد نذكر الحمام الشمالي الكبير الذي شيد في عهد الإمبراطور سبتيم سيفير(**111-193م**)، و يعتبر من أكبر حمامات المدينة. الى جانب حمامات مدينة تيمقاد الاثرية، هناك حمامات مدينة شرشال وحمامات مدينة جميلة، و حمامات مدينة تيبازة .

- المنازل:

يمكن القول أن المنازل الرومانية بصفة عامة هي تشابه في تصميمها المباني الإغريقية حيث لا يوجد بها نوافذ للحائط الخارجي، وتنقسم إلى قسمين أما القسم الأول وهو باب المنزل الذي يقابل الطريق ويؤدي هذا الباب عبر طريق إلى فناء المنزل، وأما القسم الثاني وهو وسط المنزل ويمكن أن يتكون من حوض و نافورات و بها توجد المرافق الأخرى للبيت من غرفة نوم وأكل وغيرها.

وأما في تيمقاد فنجد أ ن المنازل تكونت عن طريق تقاطع الطرقات الفرعية و الأساسية التي شكلت مربعات تبلغ مساحتها حوالي20 م×20م،و عن طريق هذه التشكيلات من المربعات خصصت لبناء المنازل، ومع مرور الوقت ازداد عدد السكان في المدينة فهدمت الأسوار التي كانت تحيط بها وبنيت منازل أخرى وتتشابه المنازل بتيمقاد من حيث مرافقها الداخلية فنجد أ ن المنازل تحتوي على فناء وأعمدة في فناء المنزل. ومن أشهر المنازل بالمدينة هو منزل سرتيوس.

مرافق ذات طابع اقتصادي:

من اهم المرافق ذات الطابع الاقتصادي نذكر الاسواق، الدكاكين ، و دار الضرائب.

- **السوق**: جمعه اسواق و الاسواق الرومانية او في مكان ما عبارة عن فناءات مربعة او مستطيلة تحيط بها دكاكين تتجه ابوابها الى الرواق الذي يحيط بالفناء، يبنون بناية دائرية تكون اما عين ماء او حانوت. و من الاسواق بمدينة تيمقاد ثلاثة اسواق رئيسية؛ السوق الشرقي وهو مخصص لبيع اللحوم والأسماك وهو من أقدم الاسواق في المدينة، و سوق سيرتيوس الخاص بالخضر والفواكه، ولقد قام ببنائه سيرتيوس وقدمه للمدينة تعبيرا لحبه للوطن، لكن فقط للإشارة هذين النوعين من الاسواق قد خرجا نمطهما الهندسي عن هذه قاعدة البناء التي ذكرناها سابقا في البداية (تخطيط او تصميم الاسواق) أما السوق الثالث فهو سوق للقماش ويقع غرب سوق سيرتيوس. اضافة الى مجموعة من الدكاكين وزعت على طول الشارع الرئيسي الشرقي الغربي (دوكامانوس ماكسيموس) للمدينة.

- دار قابض الضرائب:

تقع هذه البناية على يسار الطريق الشمالي الجنوبي(**كاردو ماكسيموس**)، بعد بناية متحف تيمقاد القديم، وبها ثلاث قاعات كبيرة ويوجد في قاعتين من هذه القاعات معصرة للزيت ولقد وجد في هذه الدار(**دار قابض الضرائب**) طاولة الكيل والمعروضة الآن أمام المتحف، وكذلك المذاود الكثيرة المتجاورة تحت جدران الغرف الصغيرة، ومن المؤكد ان الضرائب كانت قمحا وشعيرا وتمرا وزيتونا وغيرها مما كان يكال أو يوزن، وتعد هذه المصلحة من أكبر المصالح الرومانية في إفريقيا حيث كانت تجبر السكان على أداء الضرائب وذلك لتزويد الإمبراطورية الرومانية بالمحاصيل الزراعية.

ثانيا: مرافق ذات طابع ثقافي وديني:

1- **مرافق ذات طابع ثقافي:** من اهم المرافق نذكر:

❖ **المكتبة**: تعد المكتبة من المرافق الثقافية الأساسية و المهمة في المدينة الرومانية القديمة ، وبهذا تكون سرحا ثقافيا علميا بأتم معنى الكلمة لما احتوته من قاعات للمطالعة والمحاضرات وعدد المجلدات الضخم مع العلم أن مدينة تيمقاد كانت في بادئ الأمر مدينة عسكرية لقدماء الجند، وتعد مكتبة تيمقاد أيضا الوحيدة في إفريقيا والثانية في المستعمرات الرومانية بعد مكتبة ايفاس بتركيا.

لقد عثر لأول مرة في تيمقاد على أثار إحدى المكتبات العمومية التي كثيرا ما ورد ذكرها في النقوش والنصوص اللاتينية ويرجع الفضل في بناء هذه المكتبة إلى كرم مواطن ثري اسمه كاتتيوس فلافيوس الذي قام بأعباء هذا المشروع في القرن الرابع ميلادي، ولقد كلفته 400.000 سيسترس، ولقد تبرع بها لفائدة المصلحة العامة، وإثباتا لوطنيه، وتعتبر هذه الأعمال التي يقوم بها الرجال الأثرياء شرفا فخريا لهم، ولقد تم اكتشاف هذه المكتبة في سنة 1901م في وقت غير بعيد من اكتشاف مكتبة أخرى في آسيا وهي مكتبة ايفاس.

- المسارح:

تعتبر المسارح من المرافق أساسية في تشكيل المدينة القديمة، ولقد حرص فيتروفيوس على تحديد اهم المعالم و الخصائص الاساسية للمسرح الروماني ، و تحديد مساحة كل عنصر على حدى و شروط بنائه و توضيح الاختلاف الحاصل بينه و بين المسرح اليوناني،

و التأكيد لإعطاء الحجم الكبير للخشبة .... فالمسرح الروماني كالمسرح الإغريقي له أصل ديني حيث قد بدا لإكرام الإله الإغريقي(باكوس) إله العنب والخمر. و قد حاول الرومان في جميع مدنهم إنشاء مراكز ثقافية ترفيهية مثل المسارح والملاعب، وإن أكثر هذه المراكز انتشارا هو المسرح الروماني سواء كان دائريا أو نصف دائري، فنجد في مدينة تراجان (تيمقاد) المسرح النصف دائري المخصص للعروض المسرحية والغناء وغيرها من الأنشطة الثقافية. ومن الامثلة التي ما تزال قائمة الى يومنا هذا نذكر مسرح تيمقاد و الواقع في الجنوب الشرقي من الساحة العمومية (الفوروم)، و المسمى بمسرح تيمقاد النصف المتجه نحو الغرب، وتم إنشاء هذا المسرح عام 168 م في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس.

2- مرافق ذات طابع ديني :

- المعابد:

لقد كان الوضع الديني للرومان بصفة عامة ذو طابع وثني حيث كانت لهم

الآلهة بالآلاف وسبب كثرة هذه الآلهة هو جعل لأي ظاهرة من الظواهر إلاها خاصا بها مثل: الحصاد، التجارة، العقل، وغيرها من الآلهة الأخرى وأهم الآلهة التي كانت تعبد عند الرومان هي (**جبتور، جينون، منيرفا**)، ويمكن أن نشرح كل واحدة من أسماء هذه الآلهة، فجوبتير تعني المشتري (اله المطر) و جينون هي آلهة النور والزواج، و منيرفا آلهة الفطنة و العلم لقد شيدت في مدينة تيمقاد عدة معابد وأهمها معبد الكابيتول الذي شيد ليحتضن الثالوث الإلهي ومعابد أخرى موزعة في مختلف نواحي المدينة. من المعابد و هي عديدة نذكر معبد جيني للمستعمرة وقد بني على الرصيف الشمالي لطريق لمبيز، ومعبد معبد الكابيتول وقد اقيم تكريما للثالوث الإلهي(جوبتير، جينون، منيرفا)